أنس إبراهيم*

الشخصيّة الوظيفيّة في السّينما الإسرائيليّة: «فالس مع بشير» نموذجًا

تقـدّم هـذه المداخلـة تحليـلاً للشـخصيّة العسـكريّة الإسرائيليّـة في فيلـم «Waltz With Bashir, 2008»، للمخـرج الإسرائيـليّ آري فولـمان، بوصفهـا شـخصيّة وظيفيّـة، أي الشّـخصيّة التـي تُفكِّـرُ بنفسـها كجـزءٍ مـن منظومـة سـلطويّة تتجاوزهـا وفي الآن ذاتـه تحتَويهـا أيديولوجيـاً وفِكريـاً. توظّـفُ الورقـة عمـل عالـم النّفـس الاجتماعـيّ الأميركـيّ، سـتانلي ميلغـرام Stanley Milgram (١٩٣٣-١٩٨٤)، الـذي تركّـزَ عـلى دِراسـة انصِيـاع الأفـراد في المجتمعـات الحديثـة للسّـلطة مـن خـلال عـدد مـن التجـارب المختبريّـة والمقـالات النّظريّـة. طـوّر ميلغـرام مفهـوم الوضعيّـة الوظيفيّـة Agentic state، والـذي يُشـيرُ إلى الوضعيّـة التـي فيهـا تنتقـل الشـخصيّة الإنسـانيّة مـن كونهـا مُسـتقلّة التّفكـير إلى حالـة خُضـوعٍ كلّيٍ للسّـلطة؛ أي تحوّلهـا إلى شـخصيّة وظيفيّـة.

تدّعـي هـذه المُداخلـة أنّ الشـخصيّة العسـكريّة التـي تظهـر في فيلـم «فالـس مـع بشـير» تقـدّم نموذجـاً بـارزاً للشـخصيّة الوظيفيّـة العسـكريّة الإسرائيليّـة، واسـتناداً إلى هـذه الفرَضيّـة يتـمّ تفسـير انعـدام شـعور آري فولـمان أو أيٍّ مـن الشـخصيّات الأخـرى في الفيلـم، بالمسـؤوليّة الأخلاقيّـة أو القانونيّـة عـن أحـداث مجـزرة صـبرا وشـاتيلا التـي وقعـت بـين السّـادس عـشر والثامـن عـشر مـن أيلـول في العـام ١٩٨٢ غـرب مدينـة بـيروت، وراح ضحيّتهـا أكثـر مـن ٣٥٠٠ فلسـطينيّ ولبنانـي بعدمـا أدخـلَ الجيـش الإسرائيـليّ ميليشـيا الكتائـب اللبنانيـة إلى المخيّمـات وزوّدها بالإضـاءة الليليّـة والمعـدّات العسـكريّة، إضافـة إلى حراسـة

* أنـس إبراهيـم، كاتـب وباحـث حاصـل عـلى الماجسـتير في الدراسـات الإسرائيليـة مـن جامعـة بيرزيـت.

يمكن وصف الشخصيّة الوظيفيّة العسكريّة الإسرائيلية ما قبل الانتفاضة الثانية بالشخصية الوظيفيّة الليبراليّة وهي الحاضِرة في فيلم «فالس مع بشير». أمّا الشخصيّة الوظيفيّة العسكريّة الفاعلة اليوم في الجيش الإسرائيليّ والمؤسسة الأمنيّة الاستعماريّة يمكنُ وصفها بالشخصيّة الوظيفيّة القوميّة.

المخيّمات ومنع خروج أيّ شخصٍ منها خلال ساعات المجزرة.

ستركّز المُداخلة على الجانب النظريّ النفسيّ لا التّاريخيّ أو السّياسيّ الذي يحتويه الفيلم. ولذلك بدأتُ بالتأطير النظريّ للمصطلحات الأساسيّة الواردة في المداخلة؛ كالسّلطة، الدّولة، أفعالُ السّلطة، وأخيراً، الشخصيّة الوظيفيّة. ومن ثمّ محاولة موضعة الفيلم وعناصره الخطابيّة الأيديولوجيّة، السياسيّة والفكريّة المستمدّة من أيديولوجيا الاستعمار الاستيطاني الصهيونيّ، وبين مفهوم الشخصيّة الوظيفيّة والسّلطة التي بحَثَ فيها ميلغرام في كتابه «طاعة السّلطة Obedience to authority».

ومن الادّعاء الأوّل تستمدُّ المداخلة ادّعاءها الثّاني، وهو أنّ هناك تحوّلاً طرأ على الشخصيّة الوظيفيّة الصهيونيّة خلال العقود الأخيرة يرجعُ إلى التحوّلات التي طرأت على الأيديولوجيا الصهيونيّة المهيمنة في إسرائيل. فالشخصيّة الوظيفيّة العسكريّة الإسرائيلية ما قبل الانتفاضة الثانية يمكنُ وصفها بالشخصية الوظيفيّة الليبراليّة وهي الحاضِرة في فيلم «فالس مع بشير». أمّا الشخصيّة الوظيفيّة العسكريّة الفاعلة اليوم في الجيش الإسرائيليّ والمؤسسة الأمنيّة الاستعماريّة يمكنُ وصفها بالشخصيّة الوظيفيّة القوميّة. لا تختلفُ الشخصيّة الوظيفيّة القوميّة عن الليبراليّة في أنماطِ إنشائها أو سلوكيّاتها، لكنّها تختلفُ في قدرتها التّدميريّة المنهجيّة، وفي تشرّبها لادّعاءاتٍ خَلاصيّة صهيونيّة تتجسّدُ في كراهيّتها العميقة للجسد الفلسطينيّ.

تأطير نظريّ للشخصيّة الوظيفيّة

تجدرُ الإشارة أوّلاً إلى تعيين بعض المُصطلحات الأساسيّة لهذه المُداخلة، ومِنها السّلطة، الدّولة، وكذلك مُصطلح «الشخصيّة الوظيفيّة»، لغاية الإشارة إلى السّياق النظريّ الخاصّ بكلٍّ منها في هذه المُداخلة.

أوّلاً، مفهوم السّلطة الذي من الممكن أن يخضع لسوء تأويلاتٍ مختلفة بما يتعلّقُ بماهيّتها، أو شكلها أو حدود ظهورها. وفي هذه الورقة سيتمّ الاستعانة بتحليل فوكو للسّلطة، «السّلطة [التي] في كلّ مكان: لا أنّها تبتلع كلّ شيء، بل أنّها تأتي من كلّ مكان».[1] هي السّلطة السياسيّة التي تُمارس نفسها بواسطة مؤسساتٍ ظاهرياً سُلطويّة، كالمؤسسة العسكريّة، الشُّرَطيّة، السّجن، وأخرى تبدو ظاهرياً غير سُلطويّة ومُستقلّة عن السّلطة السياسيّة لكنّها فعلياً ليست كذلك، كعيادات العلاج النفسيّ، والمستشفيات ومؤسسات إعادة التأهيل.[2] أيضاً السُّلطة التي تملِكُ القُدرة التأويليّة للعالم ولوقائعه الاجتماعيّة، والتي تملك القُدرة على فرض تفسيراتها على الأفراد كتفسيراتٍ شرعيّة تملك قوّة الإكراه أو الإقناع. هنا تأتي الدّولة كما يكتبُ عنها بيار بورديو، عالم الاجتماع الفرنسيّ، على أنّها «قطاع حقل السُّلطة أو السّلطان الذي يمكن أن نُسمِّيه «حقلاً إدارياً» أو «حقل الوظيفة العموميّة»، الذي «يُعتَرَفُ بامتلاكه المشروع/الشرعيّ للعنف المادّي والرمزيّ».[3] وكي تحوز الدّولة القابليّة على الاعتراف بها كلّياً بعيداً عن قوّة القهر، فلا بدّ لها من الظهور كحيّزٍ مُحايدٍ، أي أن يكون ممكناً تعريفها باعتبارها «مبدأ أرذوكسيّة»، أو مبدأ صراطٍ مُستقيم [لا يمكنُ الاختلاف عليه]، كنقيض للفوضى أو حالة الطّبيعة [حرب الكلّ ضدّ الكلّ]، مبدأ لا يمكن إدراكه إلّا في تجلّيات النظام العموميّ ومفهوماً بالمعنيين الرمزيّ والمادّيّ في آن.[4] والدّولة هي الكيان الاجتماعيّ الوحيد القادر على اتّخاذ وجهة نظر حول وجهات النّظر كافّة، والتي تُعرِبُ عن نفسها أحياناً في ما يُسمّى بالعلم الإداريّ، أي الخطاب الذي يُدلِي به العاملون في الدّولة عن الدولة، وهو أيديولوجيّة الخدمة العامّة والمصلحة

”فالس مع البشير“: كلاب في كابوس القاتل. (الصورة عن «الشبكة»)

العامّة.[٥] وللتدليل على الدّولة، أو السّلطة، يقترحُ بورديو التّفكير بالدّولة من خلال أفعالها؛ أي بدلاً من الإشارة إلى الدّولة كفاعل، الإشارة إلى «أفعال الدّولة»، للتدليل على تلك الأفعال السياسيّة ذات الادّعاءات والمزاعم بامتلاكها مفاعيل في العالم الاجتماعيّ[٦] – وفي هذه المداخلة سأستخدمُ «أفعال سُلطة»، للإشارة إلى أفعال الشخصيّة الوظيفيّة.

تتجلّى بداهة «أفعال الدّولة» في بداهة قبول مؤسساتها وأجهزتها الفاعلة في العالم الاجتماعيّ، والتي تحوز قدرة بثّ البداهة ذاتها في العالم الاجتماعيّ؛ كالمؤسسة العسكريّة، المؤسسات التعليميّة وغيرها من المؤسسات التي تظهر كضرورة/ بداهة لا يمكنُ مُجادلتها؛ وتملك قدرة تأويليّة وتفسيريّة للعالم وواقعه الاجتماعيّ مُستمدّة من سببِها الأوّل: الدّولة. كما تملك تفسيراتها سلطة الإكراه أو الإقناع ذاتها على الأفراد في العالم الاجتماعيّ، وتكون تلك القُدرة أشدُّ سطوةً على أولئك الذين هم جزءٌ من هذه المؤسسات الدولاتيّة، والذين يُسمِّيهم ستانلي ميلغرام بـ «الشخصيّات الوظيفيّة»، أيّ الشخصيّات التي تضع نفسها في وضعية وظيفيّة Agentic state[٧].

يضعُ ميلغرام مصطلح الوضعيّة الوظيفيّة Agentic state ضِدّاً للوضعية المُستقلّة Autonomy state، والتي فيها يتصرّفُ الفرد من تلقاء نفسه ولغايات ذاتيّة. يطرأ تحوّل جوهريّ على أداء الفرد في الوضعيّة الوظيفيّة، إذ يبدأ الشّخص الذي يدخلُ نظام السّلطة في التوقّف

عن رؤية أفعاله كأفعالٍ ذاتيّة لتحقيق غاياتٍ شخصيّة، بل كأفعال سُلطة تؤدِّيها الشخصيّة الوظيفيّة Agentic personality، ولغاياتٍ غير شخصيّة.[٨] يتبع هذا التحوّل النفسيّ في النّظر والتّفكير في أفعال الذّات تغيُّرات سلوكيّة ووظائفيّة عميقة إلى الدّرجة التي يمكن فيها وصف الشخصيّة المُعدلّة بالمختلفة كُلّياً عن تلك التي كانت قبل اندِماجها في بناء السّلطة. يُشيرُ ميلغرام إلى هذه الحالة بـ«الوضعية الوظيفيّة»، والتي يعني بها اعتِبار الشّخص لنفسهِ شخصيّة وظيفيّة تعمل على إنفاذ رغبات شخصٍ آخر.

يضعُ ميلغرام، مثل فوكو، العائلة إضافة إلى المحيط الاجتماعيّ في خانة المنظومات الإنشائيّة للشخصيّة الوظيفيّة في المجتمعات الصناعيّة الحديثة – وما بعد الصّناعيّة؛ ومثل فوكو أيضاً، يُشيرُ إلى التنظيمات المؤسساتيّة كالمدرسة، الجامعة، كمنظومات سلطويّة تعمل على صقل الشخصيّة الوظيفيّة وتحضيرها لشَغْلِ دورها الاجتماعيّ في مرحلة ما بعد التّعليم. «فبمجرّد ما يخرُجُ الطّفل من العائلة، يُحوَّلُ إلى المدرسة؛

النّظـام السـلطويّ المؤسسـاتيّ. وهنـاك يتعلّـم الطّفـلُ إلى جانـب المـواد الدراسـيّة كيفيّـة التـصرّف في إطـار التنظيـم المؤسسـاتي... وسـيُدرك أنّ أفعالـه عُرضـة للضّبـط والمُسـاءَلة، ويُعلَّـمُ الطُّـلاب أنّ «العجرفـة/ الـبروز»، فعـلٌ غـير مقبـول مـن قبـل السّـلطة، ولكـن يُعاقَـبُ عليـه بشـدّة وأنّ الاحـترام هـو الطّريقـة الوحيـدة المقبولـة في الاسـتجابة للسُّـلطة».[٩]

يعتقـدُ ميلغـرام أنّ المجتمعـات الصّناعيّـة الحديثـة أضفَـتْ سِـمَة غـير مسـبوقة عـلى أنمـاط تربيـة الأفـراد عـلى طاعـة السّـلطة؛ ألا وهـي طاعـة السّـلطة غـير المُعرَّفـة شـخصياً Impersonal authorities – والتـي تعنـي أنّ الانصيـاع للسُّـلطة لـم يعـد انصياعـاً لشـخصٍ مُعـرَّف بعينـهِ للتابـع، كمـا هـو الحـال في المجتمعـات القبليّـة البِدائيّـة، بـل يكـون انصِياعـاً للرُّتبـة، للـزيّ العسـكريّ أو للقَـبِ الإداريّ، بغـضّ النظـر إن كان حامـل أو شـاغل هـذه المواقـع الإداريّـة، العسـكريّة أو السّـلطويّة، مُعرَّفـاً مـن قبـل الشـخصيّة الوظيفيّـة.[١٠] وتُطيـعُ الشـخصيّة الوظيفيّـة السّـلطة كمـا هـي فقـط عندمـا تكـون السّـلطة قـادرة عـلى إعـادة تعريـف الحالـة العامّـة، أو عالـم الأفـراد الاجتماعـيّ مـن خـلال الأيديولوجيـا، التـي بـرأي ميلغـرام، تُشـكّل السِّـمة المُلازمـة لـكلّ وضعيّـة يُطلَـبُ فيهـا مـن الأفـراد أداء أفعـالٍ اسـتثنائيّة. فالتحكُّـم بالأيديولوجيـا التفسـيريّة لعالـم الأفـراد الاجتماعـيّ، يـؤدّي إلى التحكّـم الـكُلّي أو شـبه الـكلّيّ في سـلوكهم. ولـكلّ حالـة اجتماعيّـة أيديولوجيـا مهيمنـة يُسـمّيها ميلغـرام بـ«تعريـف الحالـة»، وهـي تأويـل لمعنـى العالـم الاجتماعـيّ المُعطـى. فهـي تقـدّم منظـوراً يُكسِـبُ الشـخصيّات الفاعلـة في ذلـك العالـم الاجتماعـيّ منطِقـاً تفسـيرياً للوقائع المعيشـة. فالفعـل الذي يُنظَـرُ إليـه مـن وجهـة نظـرٍ عـلى أنّـه فعـلٌ قبيـح لا يكون كذلـك بواسـطة منظـورٍ آخـر، «فهُنـاك نـزوع لـدى البـشر لقبـول تعريفـات السّـلطة الشّرعيّـة لأفعـال معيّنـة»،[١١] ذلك عـلى الرّغـم مـن أنّ الـذات هـي مـن تـؤدّي الفعـل، إلّا أنّهـا تـترك للسـلطة مهمّـة تأويلـه. الأيديولوجيـا عنـد بورديـو هـي خطـاب الحقـل الإداريّ والسّـلطويّ، وعنـد حنّـا آرنـدت، تعمـلُ الأيديولوجيـا عـلى تدمـير العلاقـات البشريّـة كمـا تعمـلُ عـلى تدمـير الروابـط البشريّـة مـع الواقـع، و«تنجـحُ الأيديولوجيـا في إعـداد البـشر فقـط عندمـا يفقـدون روابطهـم مـع الآخريـن وصلتهـم بالواقـع؛ فمـن دون هـذه الروابـط يفقـد البـشر القـدرة عـلى التّجربـة/ العيـش والتّفكـير. لا تُشـكِّلُ الـذّات النازيّـة أو الشّـيوعيّة ذاتـاً مِثاليّـة للحكـم الشّـموليّ، بـل الـذات التـي فقـدت قدرتهـا عـلى التمييـز بـين الحقيقـة والخيـال [تمييـز التجربـة المحسوسـة]، وكذلـك قدرتهـا عـلى التمييـز بـين الصّـواب والخطـأ».[١٢]

يُشـكِّلُ إلغـاء الـذّات وإدماجهـا في الأيديولوجيـا لصالـح السّـلطة إذاً الأسـاس المعـرفيّ للطّاعـة؛ فـإن كان العالـم أو الموقـف مُفـسَّراً كمـا تُفـسّره السّـلطة، فـإنّ الإجـراءات الأخـرى تتبـع بتلقائيّـة منطقيّـة، وبالتّـالي، لـن يكـون ممكنـاً بـرأي ميلغـرام، النّظـر إلى العلاقـة بـين السّـلطة والـذات عـلى أنّهـا علاقـة تفـرضُ فيهـا سُـلطة قسريـاً العمـل عـلى ذاتٍ غـير راغبـة، لأنّ الـذّات الخاضعـة لأيديولوجيـا السّـلطة سـتكون ذاتـاً راغبـة في أداء مهامهـا.

الشخصيّة الوظيفيّة في الجيش الإسرائيلي

تسـتمدُّ الدّولـة قدرتهـا عـلى التّأثـير في العالـم الاجتماعيّ مـن قُدرتهـا عـلى فـرضِ نفسـها كبداهـة لا يُمكـنُ التّفكـير خارجهـا كمـا يعتقـد بورديـو؛ وقـد وضعـت الحركـة الصّهيونيّـة ومنـذ بدايـات مشروعهـا الاسـتعماري الاسـتيطاني في فلسـطين، مـشروع «الدّولـة اليهوديّـة»، موضـع بداهـة دولـة بورديـو، والتـي لا يمكـن التّفكـير خارجهـا بـأيّ حـلٍ للمسـألة اليهوديّـة. ذلـك كان جليّـاً في كتابـات العديـد مـن قـادة المـشروع الصهيونـيّ، ومنهـم زئيـف جابوتنسـكي الـذي كتـبَ أنّـه لا يمكـن التّفكـير بمسـار للحركـة الصهيونيّـة غـيرُ ذاك الـذي يُفـضِي إلى إقامـة دولـة يهوديّـة تملـكُ القـوّة اللازمـة لإكـراه العـرب عـلى قبـول الصّهيونيّـة مـرّة واحـدة وإلى الأبـد.[١٣]

كذلـك كانـت الأيديولوجيـا الصّهيونيّـة، ولا تـزال، مُهيمنـة في السياسـات الإسرائيليّـة، وفي تشـكيل الدّولـة عـلى أنّهـا دولـة يهوديّـة في جوهرهـا، مـن حيـث أنّ الغايـة التـي تخدمهـا هـي توظيـف الدّولـة في «معالجـة مشـاكل الشّـعب اليهـوديّ»، وذلـك انعكَـسَ عـلى بُنيـة الدّولـة القانونيّـة والسّياسـيّة المسـتنِدة إلى فكـرة المواطنـة اليهوديّـة؛ كـ«قانـون العـودة»، قانـون التعليـم الرسـميّ الـذي يُلـزم المـدارس بتعليـم الطّـلاب «قيـم الثقافـة الإسرائيليّـة وتنميـة الـولاء لدولـة إسرائيـل ولشـعب إسرائيـل»، إضافـة إلى قانـون التجنيـد العسـكريّ والقوانـين التـي تحـدّد مكانـة رسـميّة لرمـوز الشـعب اليهـوديّ.[١٤] يتقاطـع التّوصيـف السّـابق مـع تحليـل بشـارة للدّولـة اليهوديّـة التـي تعـرّف نفسـها ونظامهـا السـياسيّ اسـتناداً لبعـد دينـيّ لا يسـتندُ

كذلك كانت الدّولة في إسرائيل قادرة على إنشاء أجهزة دولاتيّة كالجيش الإسرائيليّ، تضع نفسها موضع بداهة لا يمكن حتّى للدولة أن تكون من دونها، إلى الدّرجة التي يمكن فيها وصف إسرائيل بالبُنية الاستعماريّة العسكريّة الاستيطانيّة التي هي في حالة تشكّل دائم؛ كما في وصف باتريك وولف للاستعمار كـ«بنية وليس حدثاً».

إلى المواطنة ولكن إلى المواطن اليهوديّ.[١٥]

كذلك كانت الدّولة في إسرائيل قادرة على إنشاء أجهزة دولاتيّة كالجيش الإسرائيليّ، تضع نفسها موضع بداهة لا يمكن حتّى للدولة أن تكون من دونها، إلى الدّرجة التي يمكن فيها وصف إسرائيل بالبُنية الاستعماريّة العسكريّة الاستيطانيّة التي هي في حالة تشكّل دائم؛ كما في وصف باتريك وولف للاستعمار كـ«بنية وليس حدثاً».[١٦] ويعتقد بشارة أنّ أساس هيمنة العقيدة الأمنيّة في إسرائيل هو الشّعور الدّائم بالتهديد والنّابع من إدراكٍ عميقٍ لدى المجتمع الإسرائيلي بجريمة الحركة الصهيونيّة ضدّ الفلسطينيين. ذلك ما يربِطُ هيمنة العقيدة العسكريّة بحالة «اللا خيار» والتي تنصُّ على ضرورة استعداد إسرائيل الدّائم للحرب في ظلّ وجودها في محيطٍ عربيّ لا يعترف بإسرائيل كدولةٍ طبيعيّة في المنطقة.[١٧] ذلك ما يُفسِّر هيمنة الجيش الإسرائيليّ بوصفه المؤسسة الأشدّ تأثيراً واختراقاً للمجتمع الإسرائيليّ، لا فقط لدوره الدفاعيّ، بل أيضاً من خلال أدواره غير العسكريّة في الحياة المدنيّة إلى الحدّ الذي يمكنُ فيه القول إنّه هو الشّيء الوحيد الذي يجعلُ من الدّولة واقعاً حقيقياً.[١٨] فالجيش يلعبُ دوراً حيوياً في عمليّة الإدماج الاجتماعيّة، الاقتصاديّة والتّحديثة في الدّولة، وكذلك في عمليّة بناء الأمّة؛ فهو يُساعد في عمليّات البحث الأركيولوجيّة، تعليم المهاجرين، المساعدات الزّراعية والترويج للثقافة اليهوديّة والعبريّة؛[١٩] إضافةً إلى دوره الحيويّ في تمكين سياسات الاستيطان في الضفّة الغربيّة ودعمها.

يُشكِّل الجيش في إسرائيل نموذجاً للمؤسّسة السلطويّة الأيديولوجيّة التي يصفها ميلغرام في كتابه «طاعة السّلطة»؛ فهو ليس بالمؤسسة الضبطيّة فحسب، بل تنظيم أيديولوجيّ مؤسساتيّ يعمل على إدماج الأفراد كلّياً داخل أيديولوجيا المؤسسة الصهيونيّة الدولاتيّة، لغاية خلق شخصيّة وظيفيّة راغبة ومُستعدّة لأداء أيّ مهمّة تُناطُ بها من قبل السّلطة؛ شخصيّة تتبنَّى النظام المعرفيّ والأخلاقيّ للسُّلطة، منفصلة كلّياً عن واقعها الاجتماعيّ؛ شخصيّة وظيفيّة طيّعة تقبل تفسيرات السّلطة الأيديولوجيّة لعالمها الاجتماعيّ.

إلّا أنّ الجيش الإسرائيليّ ليس محطّ التركيز لهذه المُداخلة – على الرغم من أنّه يُشكِّلُ نموذجاً للمؤسّسة السلطويّة الأيديولوجيّة يجبُ دراسته بشكلٍ منفصل، بل الجنديّ الإسرائيليّ في «فيلم فالس مع بشير»، بوصفه شخصيّة وظيفيّة طيّعة، والتي تتداخل في تشكيلها عدد من السُّلطات الأيديولوجيّة والمتعدّدة داخل المجتمع الإسرائيليّ، كالسّلطة السياسيّة، الثقافيّة والدينيّة.

فالفرد الإسرائيليّ يخضع منذ الولادة لمجموعة من الممارسات السلطويّة أداؤها متناسق لغاية خلق فردٍ طيّع يقبل التّفسير الصهيونيّ لحاضره، ماضيه ومستقبله؛ فالدّولة تقدّم نفسها بوصفها مشروعاً خلاصياً لليهود في إسرائيل وخارجها، وكذلك الجيش يقدّم نفسه على أنّه القوّة الوحيدة التي تستطيع حماية اليهود من الأخطار المُحدِقة بهم. تلك الوضعيّة تجعلُ الإسرائيليّ غير قادر على التّفكير خارج وجهة نظر الدّولة والتفسير الأيديولوجيّ الذي تقدِّمه لحاضره، ماضيه ومستقبله.

يحاول فولمان في «فالس مع بشير» إخفاء السّلطة العسكريّة وتأثيرها المُباشر على الجنود الذين يعرضهم كشخصيّات مُفكِّرة حسّاسة، لا كشخصيّات وظيفيّة طيّعة. إلّا أنّ ادعاء هذه المداخلة هي أنّ فولمان والجنود الآخرين في الفيلم كانوا شخصيّات وظيفيّة طيّعة لم تفكّر لنفسها، بل تركت عمداً مهمّة التّفكير والتفسير للسّلطة العسكريّة. لذلك كانت قادرة على ارتكاب جرائمها خلال الحرب الإسرائيليّة على لبنان في العام

١٩٨٢، وفقط بعد خروجها من دورها الوظيفيّ العسكريّ المناط بها آنذاك، وبعد مضيّ وقتٍ طويلٍ على الحرب، كانت قادرة على إسقاط أفكارها في الحاضر على الماضي للتأمّل في أخلاقيّة أفعالها من عدمها. إلّا أنّ التزامها بالأيديولوجيا الصهيونيّة ظلّ مُلازماً لها حتّى بعد انتهاء الحرب، وذلك ما دفع بفولمان إلى الاستنتاج بأنّ أحداً غير مسؤول عن المجزرة، وأنّه هو تحديداً لا يتحمّل مسؤوليّة أخلاقيّة عن المجزرة ولم يكن إلّا مشاركاً غير مباشر فيها، وهو العذر الذي عادة ما يستخدم من قبل الشخصيّة الوظيفيّة؛ أيّ أنّها كانت تؤدّي واجبها فحسب.

«اتبعوني»: نِداء الأيديولوجيا الصّهيونية لراقص الفالس

«اتبعوني»، لا «تقدّموا إلى الأمام»، هي صيغة الخطاب الرّسميّة بين الضّابط والجنديّ في الجيش الإسرائيليّ،[٢٠] وفي تلك الوضعيّة وضَعَ آري فولمان نفسه، مخرجُ «Waltz With Bashir»، كجنديّ في الحرب الإسرائيلية على لبنان في العام ١٩٨٢، وكجنديّ استمرّ في إطلاق القنابل الضوئيّة على مخيّميّ صبرا وشاتيلا ليلاً خلال ساعات المجزرة التي استمرّت أكثر من ٤٨ ساعة والتي راح ضحيّتها أكثر من ٣٥٠٠ بين رجالٍ، أطفالٍ ونساء فلسطينيات ولبنانيين.[٢١]

يتتبع الفيلم محاولة فولمان لاسترجاع ذكرياته المفقودة عن فترة خدمته العسكريّة آنذاك؛ ففي العام ٢٠٠٥ يلتقي بصديقٍ وجنديّ سابق، اسمه بوعاز، ويخبره الأخير عن كابوس يعاوده منذ فترة طويلة. في الكابوس يظهر ٢٦ كلباً يعوون تحت شرفته ويقولون لصاحب الحانة في الطابق الأرضيّ: «سلّمنا بوعاز وإلّا حطّمنا الحانة». يتّضحُ أنّ بوعاز كان قد واجه صعوبة في إطلاق النّار على البشر أثناء خدمته العسكريّة، ولذلك كُلِّفَ بإطلاق النّار على الكلاب الضالّة التي كانت تنبحُ بمجرّد اقتراب كتيبته من القرى اللبنانية ليلاً لاعتقال من يُسمّيهم «بالمخرّبين». «أتذكّرها جميعاً، ٢٦ كلباً، قتلتها جميعاً»، يقول بوعاز، فيسأله فولمان إن كان رأى أحداً كمعالجٍ نفسيّ للتخلّص من كابوسه، فيقول إنّه لم ير أحداً، فقط أنت. أنا؟ لماذا أنا يسألُ فولمان، فيجيبه لأنّك كنت هناك أيضاً، في لبنان. لبنان ليست في نظامي النفسيّ، يقول فولمان، لا أتذكّر شيئاً عن لبنان. والمجزرة؟ يسأله بوعاز، فيتجمّدُ وجه فولمان ويقول: «أيّ مجزرة؟ عن أيّ مجزرة تتحدّث؟»، «شاتيلا، ألم تكن قريباً من هناك؟ تقريباً ١٠٠ ياردة؟»، «المجزرة ليست في نظامي النفسيّ»، يقول فولمان، الحرب كلّها ليست في نظامي النفسيّ.

بعد فترةٍ على لقائه ببوعاز يبدأ فولمان برؤية حلمٍ يظهر فيه برفقة جنديّين وهم ينهضون عراةً قُبالة شاطئ بيروت، يلبسون زيّهم العسكريّ ويحدّقون في سماء المدينة الصّفراء بينما القنابل الضوئيّة تشقُّ سماء المدينة. يصعدون درجات الشّاطئ إلى الشّارع الرئيس؛ ويمشون في الشّوارع المُدمّرة والدّهشة مرتسمة على وجوههم إلى أن يأخذوا منعطفاً يدخلونه فتظهر جموع من النّساء النّائحات والرّعب بادٍ عليهنّ وهناك ينتهي الحلم. لا يُميِّزُ من الحلم إلّا شخصاً واحداً، وهو كارمي كنعان، صديقه القديم ومن رافقه خلال خدمته العسكريّة.

لاحقاً يذهبُ لرؤية صديقه أوري سيفان، معالجه النفسيّ، ليعرف ما الذي يجري له ولماذا لا يتذكّرُ شيئاً عن خدمته العسكريّة في لبنان، ولماذا تعاوده هذه الرّؤيا منذ لقائه ببوعاز. يقولُ له سيفان بأنّ الذّاكرة مخادعة؛ في بعض الأحيان نتذكّر أشياءً لم تحدث فقط لأنّ أحداً أوحى لنا بإمكانيّة حدوثها في الماضي، وفي أحيانٍ أخرى يحصل العكس، لا نتذكّرُ أشياء حدثت بالفعل لأنّ أحداً أوحى لنا بانعدام إمكانية حدوثها في الماضي. «ولكن إن كان الأمر يهمُّك كثيراً، اذهب إلى كارمي واسأله إن كان يتذكّر شيئاً عنك خلال الحرب».

يؤسّس الفيلم من خلال هذا الحوار بين المريض والمعالج النفسيّ لمنطق الفيلم المستند إلى العلاج النفسيّ؛ أي منطق فقدان الذّاكرة، والبحث ما وراء هذا الفقدان، وموضعة فولمان كمريضٍ منفصلٍ عن واقعه وماضيه، العالق في عالم من الخيالات والهلوسات التي قد تكون حقيقة وقد تكون خيالاً. وهو المنطق الذي يُفسّره راز يوسف على أنّه محاولة لإنشاء تمزّقٍ صادمٍ بين الذّاكرة الفرديّة الخاصّة، وما بين التّاريخ؛ أي الذاكرة القوميّة؛ فالحرب تظهر كأنّها فضاء ذاكرة خاصّة بمجموعة اجتماعيّة معيّنة منبوذة من الذّاكرة الجمعيّة الإسرائيليّة، وهم الجنود كرامي كنعان، بوعاز وفولمان، ممّن شاركوا في الحرب الإسرائيليّة على لبنان في العام ١٩٨٢.

يؤسّس الفيلم من خلال هذا الحوار بين المريض والمعالج النفسيّ لمنطق الفيلم المستند إلى العلاج النفسيّ؛ أي منطق فقدان الذّاكرة، والبحث ما وراء هذا الفقدان، وموضعة فولمان كمريضٍ منفصلٍ عن واقعه وماضيه، العالق في عالم من الخيالات والهلوسات التي قد تكون حقيقة وقد تكون خيالاً. وهو المنطق الذي يُفسّره راز يوسف على أنّه محاولة لإنشاء تمزّقٍ صادمٍ بين الذّاكرة الفرديّة الخاصّة، وما بين التّاريخ.

أنواع الشخصيّات الوظيفيّة في الفيلم

ينشئ الفيلم إذاً مجموعة اجتماعيّة مُعيّنة، هي الجنود الإسرائيليون الذين يتشاركون ذاكرة حرب العام ١٩٨٢، ويُضيّق المجموعة أكثر إلى مجموعة من الشخصيّات المتباينة على الرغم من اشتراكها في سمة أساسيّة هي سِمَة الشخصيّة الوظيفيّة العسكريّة. يمكنُ تصنيف هذه الشخصيّات بحسب حالتها الشّعوريّة الأساسيّة التي تظهر كسِمة تعريفيّة مؤسِّسة. هناك بوعاز قاتل الكلاب؛ شخصيّة وظيفيّة قلِقَة وجبانة، لا تستطيع إطلاق النّار على البشر؟ أطلق النّار على الكلاب، ففعل. وبحسب ميلغرام، فإنّ مشاعر الخوف أو القلق التي تنتاب الذّات التي تضطرُّ إلى أداء أفعالٍ استثنائيّة في ظروفٍ استثنائيّة هي مشاعر استِباقيّة في طبيعتها وتُشيرُ إلى التخوّف من المجهول.[٢٢] مثالُ ذلك، القتل؛ فهو فعل دخول إلى منطقة شعوريّة مجهولة لأيّ إنسانٍ لم يسبق له قتل إنسانٍ آخر أو حتّى حيوان. ويُسمّي ميلغرام مزيج المشاعر التي تنتاب الذّات بالقلق Anxiety؛ والذي يظهرُ جرّاء تاريخ طويل من تربية الفرد الاجتماعية، إذ يتشرّبُ الفرد منذُ الولادة وحتّى البُلوغ قواعد السّلوك في الحياة الاجتماعية – والتي في أساسها احترام السّلطة. ومن الصّعب بمكان على الذّات في الوضع الطبيعيّ أن تخترق قواعد السّلوك هذه نتيجة لارتباطها بكوابح نفسيّة داخليّة تضَعُ الذّات في حالة شعوريّة بالتّهديد على الأنا بمجرّد التّفكير في خرقها. وقد لاحظ ميلغرام في تجاربه المختبريّة أنّ الذوات التي تخترق تلك القواعد تظهِرُ ردّات فعل عاطفيّة كالخوف، الضّحك الهستيريّ، الحرج أو الشّعور بالعار، والتي اعتبرها تمظهرًا لتنبّه داخليّ بخرق الذات للقواعد الاجتماعيّة المقبولة. يتولّد القلق بينما تنتبه الذّات على سلوكها، الأمرُ الذي يُحفّزها للتراجع عن هذا الفعل المحظور، كالقتل، التعذيب أو الضّرب، وبذلك يُخلَقُ حاجز شعوريّ يتوجّب على الذّات تجاوزه لتتمكّن من أداء تلك الأفعال. ويعتقد ميلغرام، أنّه وبمجرّد «انكسار الجليد»، واختراق الذّات لذلك الحاجز الشعوريّ وتأقلمها مع القلق المتولّد عنه، يتبخر كلّ التوتّر، القلق أو الخوف الأوّلي.

استناداً إلى ما سبق، يكون إحجام بوعاز عن إطلاق النّار على البشر وموافقته على قتل الكلاب آليّة من آليّات مساومة الذّات مع السلطة لتفادي الخروج من حالة الطّاعة. وهناك كارمي كنعان، الجنديّ الذي كان مُتوقّعاً له أن يكون عالم رياضيّات عبقريًّا حائزاً على نوبل؛ شخصيّة وظيفيّة طيّعة أخرى كانت تحاول نيل إعجاب السّلطة بقدراتها القتالية: «كنت أريد إثبات نفسي للجميع»، «وهل فعلت؟»، يسأله فولمان، ويقول: «بالطّبع، وتجاوزت التوقّعات». لا يشعُرُ كارمي بالنّدَم، بل بالرّضى الداخليّ وهو يتذكّرُ لحظة إطلاقه النّار بكثافة برفقة كتيبته العسكريّة على سيّارة مرسيدس بيضاء ليكتشفوا لاحقاً أنّهم قتلوا لتوّهم عائلة كاملة. لا يعلّق كنعان، الذي قرّر بعد انتهاء الحرب السّفر إلى هولندا ليبيع الفلافل: «أيّ مستقبل؟»، يقول: «لم يكن هناك مستقبل بعد الحرب». كان مأزوماً عند النّظر إلى نفسه من الدّاخل أو الخارج: «كنت الطالب العبقريّ الذي يلعب الشّطرنج بينما البقية يعيشون مغامراتهم العاطفيّة كالأرانب». لذلك التحَقَ بالخدمة العسكريّة ليثبت للجميع أنّه قادر على أن يكون رجلاً كالبقيّة في مجتمع ذكوريّ عسكريّ كالمجتمع الإسرائيليّ. على الرّجل الرّجل إظهار القسوة والصّلابة، لكن الذّات في الوضع الطبيعيّ لا تستطيع التصرّف بالقسوة التي تشتهي فتعملُ على كبح هذا الإغراء والامتناع عنه. لكن بمجرّد دخولها في حالة الشخصيّة الوظيفيّة، تختفي آليّات الرقابة الدّاخلية لأنّ السلوك لم يعد مدفوعاً بدوافع ذاتيّة – كإثبات الذّكورة في حالة كنعان، ولم

يعد ينعكس على صورته الذّاتية – لن يوصم كنعان بالقاتل بل بالجنديّ الشّجاع، وبالتّالي لن يكون هناك عواقب على صورة الذّات. هنا تلعب صورة الذّات دوراً حيوياً في بناء الشخصيّة الوظيفيّة وتحفيزها كما يعتقد ميلغرام؛ فثمة صورة ذكورة صلبة تريدُ الشخصيّة الظّهور بها، الظّهور على أنّها قادرة على البقاء حتّى النهاية، على تحمّل أيّ متاعب أو صعوبات، لتثير إعجاب السّلطة، الأصدقاء والعائلة، أو على أقلّ تقدير تجنّب الإحراج الاجتماعيّ، أو الإقصاء، أو التسبّب في خيبة أمل العائلة والرّموز الذكوريّة المؤثّرة على الشخصيّة. تعمل هذه المشاعر مجتمعة/ منفردة على الدّفع بالأفراد لتسليم أنفسهم للأيديولوجيا والتحوّل إلى شخصيّات وظيفيّة، كما تعمل على الإبقاء عليهم في تلك الوضعيّة حتّى انتهاء خدمتهم العسكريّة، وإن كانوا في حالة يُرثى لها.

كنعان كان الشخصيّة الوظيفيّة الصّلبة المتأزّمة، في حين كان رون دياج الذي هرب بعد تعرّض كتيبته للقصف الشخصيّة الوظيفيّة المتأزمة الهشّة، التي شعرت بأنّها كانت خيبة أمل للجميع. كان الشخصيّة الوظيفيّة المحبطة التي لم تستطع الارتقاء إلى مستوى الأداء العسكريّ المتوقّع منها.

الهولوكست و«الفشل الأدائيّ» كحلول سحريّة في جعبة الشخصيّة الوظيفيّة

يعتقد ميلغرام أنّ أشدّ عواقب تحوّل الذات من شخصيّة مستقلّة إلى وظيفيّة هو انعدام شعورها بالمسؤوليّة الأخلاقيّة عن أفعالها أو تبعاتها، إذ لا يختفي الحسّ الأخلاقيّ، بل يكتسب معنى مختلفاً يتمظهرُ في شعورها بالعار أو الفخر تبعاً لمدى كفاءَتها. فدياج شعر بالإحباط لفشله «الأدائيّ»، في حين شعر كنعان بالرّضى لأدائِهِ مهامّه على أكمل وجه، بينما فرينكل، الجنديّ الراقص مع بشير، و«الرجل الخارق» في الفيلم، أو الشخصيّة الوظيفيّة الخارقة التي تتمتع بكفاءة ذهنيّة وبدنيّة عالية لم تشعُر بأيّ تأزّمٍ خلال أو بعد انتهاء الخدمة العسكريّة. ولكن شعرت بالرّضى الكامل والفخر لا بأدائها العسكريّ فحسب، بل بقدرتها على أن تكون تلك الشخصيّة الوظيفيّة الطيّعة الخارقة في أيّ ظرفٍ مُعطى.

تحيط أيديولوجيا السّلطة بعالم شخصيّاتها الوظيفيّة، وتوفّرُ لها اللغة اللازمة التي تمكّنها من التعامل مع تبعات أفعالها أو مراوغتها. الولاء، الواجب والانضباط؛ كلّها مصطلحات تشيرُ إلى ذاك الحسّ الأخلاقيّ الذي يُلازم الشخصيّة الوظيفيّة. ومن هذه المصطلحات تستمدُّ الشخصيّة الوظيفيّة دفاعها عن نفسها عند مواجهتها بارتكاب أفعالٍ شنيعة – كمجزرة صبرا وشاتيلا، أو عمليّات الإعدام الميدانيّة التي ينفّذها الجيش الإسرائيليّ في المناطق الفلسطينية المحتلّة. ويتلخّصُ ذاك الدّفاع في أداء الواجب، وفي التأكيد على هذا الدّفاع، لا تقدّم الشخصيّة الوظيفيّة حجّة لإعفائها من المسؤوليّة، بل تقدّم تقريراً عن وضعيّتها الوظيفيّة كجزءٍ من منظومة السّلطة أو سلسلة الأوامر العسكريّة.

لتشعر الذّات بالمسؤوليّة الأخلاقيّة عليها أوّلاً أن تشعر بأنّها أصبحت معيبة بسبب أفعالها، إلّا أنّ الشخصيّة الوظيفيّة لا ترى نفسها كذلك لأنّها تفكّر بأفعالها بانفصالٍ كلّي عن نفسها؛ كأفعال سُلطة لا أفعالها الشخصيّة. «انتظَرْنا»، «تلقّينا الأوامر»، «طُلِبَ منّا»، «قِيلَ لنا»، «أرسلونا»، «طُلِبَ منّي»؛ كلّ هذه الصّيغ الخطابية المستخدمة في الفيلم على لسان فولمان [الرّاوي]، تُدلِّلُ لا على وضعيّته الوظيفيّة فقط، بل حتّى على كيفيّة تذكّره الأحداث بعد ٢٦ سنة على وقوعها. إذ يتذكّر نفسه كجزء من آلة ضخمة، كذات منقوصة القدرة على التفكير لنفسها؛ فالفيل الذي في غرفة الفيلم، هو الـ«هُم»، الذين لا يتطرّقُ فولمان إليهم ولا يسألُ عن هويّتهم: كأنّهم أشباح لا أحد يراهم ولكنّهم مع ذلك يحرّكون كلّ شيء – ويتحمّلون مسؤوليّة كلّ شيء بحسب إيحاء الفيلم. ذلك على الرّغم من أنّ ضمير الـ«هم» يلعبُ دوراً أساسياً في إعتاق فولمان ورفاقه من مسؤوليتّهم الأخلاقيّة خلال الحرب؛ فالادّعاء أنّه لم يكن هو من كان مستلقياً على الشّاطئ وقال لماذا لا أذهب وأقصف بيروت الآن؟ بل جاءت أوامر«هم» وتصرّف هو كشخصيّة وظيفيّة طيّعة على الفَور.

ولأنّ الشخصيّة الوظيفيّة لا تفكّرها بأفعالها كأفعال شخصيّة، بل كأفعال سُلطة غير مرئيّة، فهي تلجأ لتفسير أيّ عواقب كارثيّة لتلك الأفعال من خلال منطق الفشل الأدائيّ، لا لشخصيّة وظيفيّة بعينها، بل لآليّات عمل السّلطة بأكملها. لا يُفكّر فولمان بأفعاله خلال الحرب كأفعالٍ شخصيّة تخصُّه، بل كأفعال سُلطة، وبالحرب نفسها وبمجزرة صبرا وشاتيلا على أنّها

جميعـاً عواقـب فشـل أدائـيّ كارثـيّ في سلسـلة القيـادة الإسرائيليّـة، مخفيـاً هـذا الفشـل الأدائـيّ بخطـاب علميّ شـديد التعقيـد عـن الذّاكـرة والحـرب.[٢٣] كمـا يمكـن اعتبار الفيلـم بأكملـه سرديّـة لمراوغـة الشّـعور بالذنـب؛ فـأوّلاً هنـاك خطـاب الذّاكـرة العلمـيّ الـذي يُمَوضِـعُ فولمـان في وضعيّـة مُتشـكّكة حـول الواقـع والمـاضي، كشـخصيّة غـير قـادرة عـلى التمييـز بـين الواقـع والخيـال. ثـمّ يأتـي اسـتحضار الهولوكسـت كحـلٍّ سـحريّ ليضَـعَ فولمـان نفسـه في موقـع الضحيـة، ليظهـر أنّ الطريقـة الوحيـدة التـي يسـتطيع فيهـا فولمـان إبـداء أيّ اهتمـامٍ بالضحيّـة الفلسـطينيّة هـي باسـتحضار موقعـه كضحيّـة يهوديّـة؛ فموقعـه كضحيّـة يهوديّـة يتعـارض وإمكانيّـة مسـؤوليّته كيهـودي عـن خلـق ضحيّـة غـير يهوديّـة. «وجـدت نفسـك تلعـب دور النـازيّ غصبـاً عنـك»، يقـول معالجـه: «ليـس الأمـر كأنّـك لـم تكـن هنـاك، بـلى، وأطلقـت تلـك القنابـل الضوئيّـة ولكنّـك لـم ترتكـب المجـزرة».[٢٤] يبنـي فولمـان شـخصيّته إذاً كـ«ضحيـة بريئـة للتاريـخ»،[٢٥] التـي أصبحت شـاهداً رغمـاً عنهـا عـلى وقائـع صادمـة، في ظـلّ تجاهـل الفيلـم للسـياق التاريخـيّ لحـرب إسرائيـل عـلى لبنـان؛ السّـياق الـذي يبـدو طبيعيـاً كأمـرٍ مفـروغ منـه أو قـدر محتـوم. وفكـرة أنّ فولمـان لـم يفعـل شـيئاً عـدا إطـلاق بعـض القنابـل الضوئيّـة، أي إنـه لـم يكـن إلّا شـاهداً مراقبـاً سـلبياً وليـس مشـاركاً نشـطاً، تعفيـه مـن أيّ ذنـبٍ أو مسـؤوليّة أخلاقيّـة عـن المجـزرة.[٢٦]

كمـا يسـتخدم فولمـان تقنيـة الرسـم الكرتونـيّ Animation، كتقنيـة أخـيرة للتنصّـل مـن مسـؤوليّته الأخلاقيّـة، وكذلـك لوضـع المُشـاهد على مسـافة مـن الماضي؛ فباسـتخدام تلـك التقنيّـة يخلُـقُ فولمـان مجرمـاً كرتونيـاً يمكـن التعاطـف معـه والشّـعور بمعاناتـه عـلى الرغـم مـن كلّ الأفعـال السـيّئة/ الإجراميـة التـي يرتكبهـا خـلال «مغامراتـه» الكرتونيّـة، والتـي تظـلّ عـلى مسـافة مـن المشـاهد طالمـا أنّ الشـخصيّة لا تـزال في النهايـة شـخصيّة كرتونيّـة. فالفيلـم الكرتونـي يُقيـم مسـافة بـين المشـاهد وشـخصيّاته؛ يغـرّب المشـاهد ويُقلِّـلُ مـن فظاعـة الوقائـع المرويّـة، كمـا يحـوّل الأبطـال مـن أبطـالٍ بالمعنـى الروائـيّ إلى مجـرّد أفـرادٍ حسّاسـين».[٢٧] ويمكـن للمجـرم الكرتونـي أن يكـون ضحيّـة عبثيّـة واقعـه الكرتونـيّ، فاعتمـاد الفيلـم عـلى الرّسـوم المتحرّكـة يمكـن تفسـيره كمحاولـة للتشـكيك في طبيعـة الذّاكـرة المراوغـة وانعـدام موضوعيّتهـا بمـا يتعلّـق باسـترجاع حـربٍ فوضويّـة أصـلاً.[٢٨] ففولمـان وبولونسـكي صانـع الرسـوم الكرتونيّـة، ادّعيـا أنّ «فالـس مـع بشـير» سَـعى لكشـف «غبـاء الحـرب... والحيـاة الإنسـانيّة الضائعـة في الحـرب المجنونـة»،[٢٩] ومـع ذلـك، غـابَ عنهُمـا إدراج الضّحايـا في خانـة «الحيـاة الإنسـانيّة الضّائعـة»، أو حتّـى التفكـير في أنّ الحـرب – الغبيّـة، كانـت حربـاً منهجيّـة تدميريّـة وليسـت مجـرّد حـادث عشـوائيّ. ولكـنّ الانتبـاه إلى الضّحايـا يتطلّـبُ حسّـاً أخلاقيّـاً غـير وظيفـيّ لـدى البطـل الروائـيّ الـذي هـو في النّهايـة مجـرّد شـخصيّة وظيفيّـة عسـكريّة لـم تشـعر بـأيّ عيـبٍ أخلاقيّ بسـبب أفعالهـا لأنّهـا بالأسـاس لـم تفكّـر بِهـا كأفعـالٍ تخصّهـا بـل كأفعـالٍ تخـصُّ شـخصاً آخـر، سُـلطة أخـرى لا علاقـة لهـا بهـا في الحـاضر.

من الشخصيّة الوظيفيّة الليبراليّة إلى الشخصيّة الوظيفيّة القوميّة

تسـتخدمُ حنّـا آرنـدت مفهـوم «الـشرّ المتأصّـل Radical Evil»، لوصـف شرّ الهولوكسـت، المفهـوم الـذي يُشـيرُ إلى آليّـات عمـل السّـلطة الشـموليّة التـي تعمـل عـلى تحويـل البـشر إلى فائضـين عـن الحاجـة. وذلـك يتـمّ عنـد تحويـل البـشر إلى جثـث حيّـة تفتقـر إلى أيّ حـسٍّ عفـويّ أو شـعورٍ بالحريـة؛ فطابـع الـشرّ المتأصـل يتجـلّى في أنّـه لا يُفعَـلُ لدوافـع بشريّـة يمكـن فهمهـا كالصّالـح الشـخصيّ، ولكـن ببسـاطة لترسـيخ السـيطرة الشـموليّة وفكـرة أنّ كلّ شيء ممكـن.[٣٠]

يتقاطـع تحليـل آرنـدت مع نمـوذج ميلغـرام للشـخصيّة الوظيفيّـة الـذي يـرى أنّ الشـخصيّة تصبـحُ وظيفيّـة عندمـا تبـدأ بالتـصرّف لغايـاتٍ غـير شـخصيّة. ولكـنّ الاختـلاف الجـذريّ بينهُمـا، هـو أنّ شـخصيّة ميلغـرام غـير مُحايـدة، وهـي قابلـة للتأثُّـر بنزعاتهـا الداخليّـة وبنزعـات خارجيّـة غـير سـلطويّة، كالأيديولوجيـا الشـعبويّة، اليمينيّـة أو القوميّـة المُتطرّفـة. ذلـك مـا يجعـلُ نمـوذج ميلغـرام أشـدُّ إيضاحـاً وتفسـيراً لدراسـة سـلوك الجنـديّ الإسرائيليّ. فشـخصيّة آرنـدت شـخصيّة مُحايـدة وفارغـة مـن الدّاخـل؛ ففـي تحليلهـا لشـخصيّة آيخمـان، ادّعـت آرنـدت أنّ «قتلـة المكتـب Desk Murderers»، كآيخمـان، لـم يُحفَّـزوا بدوافع شـيطانية أو وحشـيّة، ولكـن الأمـر كان «انعـدام تفكـير مُطلـق – شيء لا يتطابـق والغبـاء... مـا جعلـه [آيخمـان] يُصبـح أحـد أعتـى المجرمـين في تلـك الفـترة». لـم تكـن دوافـع آيخمـان وشـخصيّته متوحّشـة، بـل بالأحـرى تافهـة Banal، واصفـة إيّـاه بأنّـه «إنسـان عـاديّ بصـورة مرعبـة،

وببساطة لم يفكّر كثيراً بما كان يفعله».[٣١]

لكنّ شخصيّة ميلغرام الوظيفيّة يمكنها أن تكون كارثية، شريرة، عاطفية ومُتعاطفة، قلقة ومتردّدة، خائفة أو متوتّرة، ويمكنها استيعاب ثقافة كراهية عنصريّة كالثقافة الإسرائيليّة. وهي أكثر عرضة لتأثيرات هذه الثقافة عندما تُصبحُ في وضعيّتها الوظيفيّة، التي فيها تُصبحُ غير مسؤولة عن أفعالها. هنا تظهر الأنا المتضخّمة Super Ego، التي تعمل على تحويل تقييم الأداء من السيّء أو الجيّد، إلى تقييم مقدار الكفاءة التي صبغت أفعال الشخصيّة الوظيفيّة؛ ذلك أنّ القوى الكابحة التي تمنع الفرد من التصرّف بقسوة ضدّ الآخرين في الظرف العاديّ لم تعد حاضرة في الوضعيّة الوظيفيّة وذلك يُحرِّرُ الكراهية الكامنة في النّفس البشريّة للآخر.

ذلك ما يحدُثُ للشخصيّة الوظيفيّة الليبراليّة في مجتمع يشهدُ انزياحاً حادّاً إلى اليمين وتطفح خطاباته السياسيّة، الثقافية والدينية بالكراهية والعنصريّة للعربيّ الفلسطينيّ. تدّعي هذه المُداخلة أنّ التحوّل الحاصل في الجيش الإسرائيليّ والمؤسسة الأمنية الإسرائيليّة هو تحوّل من الشخصيّة الوظيفيّة الليبرالية التي يُناطُ بها الحفاظ على آليّات المراقبة والعقاب، إلى شخصيّة وظيفيّة قوميّة – متعصّبة – يُناطُ بها امتلاك قدرة تدميريّة منهجيّة للآخر الفلسطينيّ. ويمكن التّفكير في شخصيّة الجنديّ إليئور أزاريا الذي أطلقَ النّار على الشهيد عبد الفتاح الشريف في البلدة القديمة في الخليل بتاريخ ٢٤ آذار ٢٠١٦، بعد أن كان الشهيد عبد الفتاح مُصاباً ومُلقى على الأرض.[٣٢]

تشعرُ الشخصيّة الوظيفيّة القوميّة بأنّها جزء من منظومة سلطويّة خلاصيّة في حالة حربٍ وجوديّة من أجل كيانٍ لاهوتيّ متخيّل اسمه الدّولة: دولة إسرائيل. وقد سبَقَ ورافق ظهور هذه الشخصيّة في الجيش الإسرائيليّ ظهور المنظّمات الإرهابيّة الصهيونيّة كشبيبة التلال، والصعود الحادّ للأيديولوجيا اليمينيّة القوميّة المتطرّفة في إسرائيل خلال العقود الأخيرة. وتُظهِرُ قضيّة الجنديّ أزاريا كيف تعمل أجهزة الدّولة بشكلٍ متناسق على تنشئة هذه الشخصيّات الوظيفيّة القوميّة وحمايتها من تبعات أفعالها. فقد أدانت المحكمة الإسرائيليّة الجنديّ أزاريا بتهمة القتل «غير المتعمّد»، واكتفت بسجنه ١٨ شهراً قبل تخفيض العقوبة إلى ١٤ شهراً ثمّ ثلثي المدّة. وعلى الرّغم من سخافة هذا القرار إلّا أنّه تبعه هيجانٍ سياسيّ يمينيّ تمثّل في إطلاق تهديداتٍ لرئيس أركان الجيش والقضاة العسكريين، إضافة إلى وعد من رئيس الوزراء الإسرائيليّ آنذاك، بنيامين نتانياهو بإصدار عفو عن الجنديّ الذي اعتُبِرَ بطلاً قومياً في إسرائيل. لاحقاً أطلِقَ سراح أزاريا الذي أكّد في مقابلة مع صحيفة «يسرائيل هيوم»، أنّه ليس نادماً على جريمة القتل، بل هو منسجمٌ تماماً مع نفسه وتصرّف كما كان يجبُ أن يتصرّف».[٣٣]

تُدلِّلُ تصريحات أزاريا على صفات الشخصيّة الوظيفيّة القوميّة بدقّة؛ شخصيّة مُنسجمة مع نفسها، تمثِّلُ تجسيداً للأيديولوجيا القوميّة اليمينيّة المهيمنة في أيّ ظرفٍ سياسيّ مُعطى، غير قادرة على الشّعور بالنّدم [فهي تفكّر بأفعالها لا فقط أنّها غير شخصيّة، بل تفكّر بنفسها كتجسيد لإرادة الأمّة]، وهي شخصيّة كارهة، عنصريّة، تشعُرُ بحماية السّلطة التي تحاول إثارة إعجابها، تثقُ في السّلطة وفي ضرورتها، على العكس من الشخصيّة الوظيفيّة الليبرالية التي قد تعبّر عن قلقٍ وتشكيكٍ في قرارات السّلطة وصواب حكمها – على الرّغم من كون هذا التشكيك لا يؤدّي بالضّرورة إلى التمرّد.

يشكّل «فالس مع بشير» نموذجاً للشخصيّة الوظيفيّة الليبراليّة، بينما هناك أعمال سينمائيّة أخرى، إضافة إلى عنف المؤسّسة الأمنيّة والعسكرية في إسرائيل، التي تشكّل نموذجاً لظهور وهيمنة الشّخصيّة الوظيفيّة القوميّة في إسرائيل خلال العقود الأخيرة. وتقترحُ هذه المداخلة إدخال نموذج التحليل النفسيّ الاجتماعيّ عند دراسة عنف المؤسسة الاستعماريّة، وتحديداً سلوكيّات الإعدام الميدانيّ التي أصبحت سمة مُلازمة لعمليّات الجيش الإسرائيليّ في الضفة الغربيّة وللشّرطة الإسرائيليّة في أراضي فلسطين المحتلّة عام ١٩٤٨. قد يُساعد توسيع استخدام نموذج التحليل النفسيّ عن دراسة عنف المنظومة الاستعماريّة الاستيطانيّة في فهم أعمق لآليّات عمل هذه المنظومة، فثمّة فروقات جوهريّة بين اعتبار الجنديّ الإسرائيليّ إنساناً مستقلّ التّفكير مدفوعاً بكراهية عميقة للجسد الفلسطينيّ، وبين اعتباره شخصيّة وظيفيّة قوميّة غير قادرة على التّفكير النقديّ؛ والشخصيّة الأخيرة هي آلة قتل أكثر استعداداً لارتكاب أفعال إبادة جماعيّة منهجيّة ومنظّمة في أيّ ظرفٍ مُعطى.

الهوامش

1 Michel Foucault, *The history of Sexuality: The Will to Knowledge*. (London: Penguin, 1998), P. 63.

2 Noam Chomsky, and Michel Foucault, *The Chomsky-Foucault Debate: On Human Nature*. (New York: The New Press, 2006), P. 44.

٣ بيار بورديو، **عن الدولة، درويس في الكوليج دو فرانس**، ترجمة نصير مروة (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦)، ١٨

٤ بورديو، ١٩.

٥ بورديو، ٢١.

٦ بورديو ، ٣١.

7 Stanley Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View*. (New York: Harper & Row, 1974), P. 130.

8 Milgram, P. 130.

9 Milgram, Pp 133-135.

10 Milgram, Pp 135-136.

11 Milgram, 139.

12 Hannah Arendt, *The Origins of Totalitarianism*. (New York: A Harvest Book, 1973), P. 474.

١٣ نبيه بشير، «قراءة جديدة لعقيدة الجدار الحديدي»، **قضايا إسرائيلية**، العدد ٦٩، (٢٠١٨).

١٤ يورام حزوني، «هرتسل أراد «دولة يهودية» لا «دولة اليهود»»،)تحرير: أنطوان شلحت(، **أوراق إسرائيليّة**، العدد ٦٩، (٢٠١٩)، ص ١٩.

١٥ عزمي بشارة، **من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقضات الديمقراطية الإسرائيليّة**، (رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٥)، ص ٥٨.

16 Patrick wolf, "Settler Colonialism and the Elimination of the Native," *Journal of Genocide Research* (2006), p. 388.

17 بشارة، ص 99.

18 A. Al-Qazzaz, "Army and society in Israel". *Pacific Sociological Review*, 16/2 (1973).

19 Al-Qazzaz.

20 Al-Qazzaz.

٢١ بيان نويهض الحوت، **صبرا وشاتيلا أيلول ١٩٨٢** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٣)، ص٥١٩.

22 Milgram, P. 145.

23 Vassilis Kroustallis, "Failure to Think, Failure to Move: Handicapped Reasoning in Waltz with Bashir", *Jewish Film & New Media*, 2 (2) (2014), PP: 132-152.

24 Ari, Folman, *Waltz with Bashir* (DVD: Artificial Eye: 2009).

25 Yosef Raz, "War Fantasies: Memory, Trauma and Ethics in Ari Folman's Waltz with Bashir," *Journal of Modern Jewish Studies*, 9 (3) (2010), PP 311-326.

26 Raz,

27 Kroustallis,

28 Kroustallis,

29 Terry Gross, "Dancing with Memory, Massacre in "Bashir"", NPR, December 23, 2008. https://www.npr.org/templates/story/story.php?storyId=98634515.?storyId=98634515.

30 Arendt, P. 438-458.

31 Hannah Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil*. (New York: Penguin Books, 1963), Pp 287288-.

٣٢ "الجندي القاتل أزاريا ليس نادماً ويؤكد أنه سيعيد الكرة"، **عرب ٤٨**، ٢٠١٨/٨/٢٩.

٣٣ "الإفراج عن أزاريا ضوء أخضر لقتل الفلسطينيين"، **عرب ٤٨**، ٢٠١٨/٥/٨.